

الدور الثقافي للمرأة الأندلسية

أ. مكي عبد القادر عمر

قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة تلمسان

مرت الأندلس منذ الفتح الإسلامي بعدة مراحل حيث تعاقبت عليها عدة دول بداية من عهد الولاة ثم عصر الإمارات الأموية ثم عقبه عصر الخلافة الأموية بداية من سنة 300هـ/912م. وقد عرفت الأندلس في هذه المرحلة أزهى عصورها حيث ازدهر العمران والعلم والأدب، وبعد انتهاء هذا العهد عاشت الأندلس في ظروف صعبة حيث ظهر التنافس بين الولاة والأمراء ما يعرف بملوك الطوائف، هذه الدويلات ظلت متصارعة في وقت تحالف النصارى ضدهم مما دفع بهم إلى الاستنجد بالدول المغربية المرابطون والموحدون، وبعد انهيار الدولة الموحدية ظهرت دولة بني نصر بغرناطة، التي عاشت في ظل بني الأحمر أوج حضارتها إلا أن الصراعات وقوة النصارى أدت إلى سقوطها ونهاية الوجود الإسلامي في الأندلس، وعلى الرغم من الاضطرابات والصراعات السياسية إلا أن الحياة الفكرية والأدبية عرفت ازدهارا وانتعاشا كبيرين وذلك بسبب تنافس الملوك في اجتذاب وتقريب العلماء والشعراء والأدباء والمفكرين إلى حواضرهم واتخذوا منهم وزراء وكتّابا. وشهد الإنتاج الفكري تطورا كبيرا في جميع المجالات وجميع مناطق الأندلس وأصبحت قرطبة واشبيلية والمرية وغرناطة مراكز فكرية

لها مكانتها العلمية البارزة في أنحاء العالم الإسلامي، ولم يكن هذا الازدهار قاصراً على الرجل دون المرأة، بل تأرجح الجو الثقافي القرطبي بأريج المرأة الأندلسية،² فشاركت المرأة في مجالات كثيرة من أبرزها.

1- المرأة في الأدب والشعر : لقد شهدت الحركة الأدبية ظهور العديد من النساء الأديبات الشاعرات وكان أغلبهن من الحرائر بينما اتجهت الإماماء إلى العناء والموسيقى، وسندكر في هذا المجال بعض النماذج من عصور مختلفة، ففي عهد الأمارة الأندلسية ظهرت بعض الأديبات ومنهن.

* العجفاء: وفدت من المشرق لا يعرف اسمها الحقيقي وهي جارية لمسلم بن يحيى كانت تقول الشعر وتغنيه خاصة في مجال الغزل والشكوى ومن شعرها:

برح الحفاء فأيايك تكتن * ولسوف يظهر ما تسر فيعلم

ما تضمن من عزيز قلبه * يا قلب إنك بالحسان لمغرم³

* حسانة التميمية: وتعتبر أنها أول شاعرة ظهرت في الأرض الأندلسية لأنها

كانت من الحرائر، وهي مولودة بالأندلس وليست وافدة⁴ موضوعات شعرها لا تختلف عن موضوعات المشرق لها قصيدة في مدح الحكم بن هشام تقول فيها:

أنت الإمام الذي أنقذ الأنام له * وملكته مقاليد النهى الأمم

لا نزلت بالعزة القعساء مرتدياً * حتى تذلل إليك العرب والعجم⁵

* قمر البغدادية: وافدة على الأندلس من بغداد جلبت لإبراهيم بن الحجاج المتوفى سنة 288هـ، وقد عاصرت ابن عبد ربه الشاعر الأندلسي المشهور صاحب العقد الفريد. أما في عصر الخلافة الأموية بقرطبة فقد ظهر عدد من النساء احترفن الشعر والأدب ومنهن.

* عائشة القرطبية: التي كانت مربية لولد المنصور ومؤدبة له وكذلك الغسانية البجائية نسبة إلى بجانة من أعمال ألمرية، عاشت في القرن الخامس الهجري أتمت شعرها بالأصالة والعمق ومن نظمها في الغزل والفراق.

اجزع إن قالو سترحل أظفان * وكيف تطيق الصبر ويحك إذ بانوا
فما بعد إلا الموت بعد رحيلهم * وإلا فالصبر مثل صبر وأحزان.

ومنهم أيضا ولادة بنت المستكفي التي داع صيتها، وتغنى بجمالها رجال عصرها وخاصة أبوا الوليد أحمد بن زيدون وهي من ابرز وجوه الأدب والشعر النسوي في الأندلس زمانا ومكانا، كما ظهرت في الأندلس أيضا نساء ينتمين إلى العائلات الحاكمة كان لهن نصيب في الأدب والشعر والعلم ومنهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح أمير المرية نظمت الشعر والموشحات خاصة وإنها نشأت في أسرة كان أفرادها من الشعراء⁸. كما ظهرت في اشبيلية في عهد ابن عباد شاعرة كانت لها قدرات وميولات أدبية وهي الرميكية، وهي جارية أعجب بها المعتمد واشتراها وتزوجها فشاركته معظم مجالسه الأدبية وساهمت بنصيب وافر في الارتقاء بالمستوى الأدبي الذي بلغته اشبيلية في عهد المعتمد. ثم

ابنتها بثينة التي أسرت عندما اقتحم المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين قصر أبيها، وبيعت بيع الجواري⁹، أما في عهد بن الأحمر فقد جمع المجتمع الغرناطي عدد من النساء اشتهرن في ميادين الأدب والسياسة ونبع منهن الكثيرات في الشعر ومن شاعرات غرناطة نذكر نزهون الغرناطية واسمها الكامل نزهون بنت القلاعي أو القلاعية، كانت نزهون صورة للحياة المدنية وللقيم التي تفرزها المدينة المترفة، إذ كانت تحضر مجالس الأدب والشعر وتجالس الشعراء فيصفها ابن السعيد بأنها كانت شاعرة ماجنة كثيرة النوادر¹⁰، ولها مساجلات مع الشاعر أبي بكر المخزومي الأعمى فقالت تمجوه:

قل للوضع مقالا * يتلى إلى حين يحشر
حيث البداوة أمست * في مشيها تتبختر
إذ كنت أنثى * فان شعري مذكر¹¹.

وقد تعددت إغراض الشعر عند النساء وإن ظل الغزل السمة البارزة ومرد ذلك إلى شيوع الترف واللهو والطرب وهو نوعان العفيف والماجن وقد مثلت النوع الأول أم الكرام بنت صمادح أما النوع الثاني مثلته ولادة بنت المستكفي¹². ومن بين الإغراض أيضا الهجاء، وإن كان شاعرات الهجاء كلهن حرائر، ومن شاعرات هذا الغرض مهجة بنت التياي الغرناطية التي تولت تربيته ولادة بنت المستكفي وهكذا فقد شاركت المرأة الأندلسية في الحياة العلمية وأسهمت في

الأحداث الثقافية والفكرية في جميع مجالاتها دون استثناء. فوجدت كذلك الناسخات والخطاطات من النساء فقد مارست النسخ طائفة كبيرة منهن مع اتصافهن بالبراعة وجودة الخط وكان لذلك أثره في بلوغ منزلة عالية لدى الخلفاء الأمويين¹³. كما كان للخليفة عبد الرحمن الناصر كاتبة تدعى مرنه وصفت بالمهارة في الكتابة وحسن الخط، وكان للخليفة الحكم المستنصر كاتبة أيضاً تدعى لبنى عرفت بالبراعة في الكتابة وسعة في الأدب عروضية خطاطة جدا¹⁴. ومن خلال هذه النماذج يتبين دور المرأة الأندلسية في المجالات الأدبية ومساهمتها الفعالة في ازدهار الحياة الفكرية إلى جانب الرجل رغم اهتماماتها الاجتماعية الكثيرة.

2- المرأة والعلوم الدينية : احتلت العلوم الدينية المرتبة الأولى عند أهل الأندلس وذلك بفضل الفقهاء الذين كانوا يشجعونها ويرغبون الناس في الإقبال عليها والنهل منها، فأقبلت النساء مثل الرجال على دراستها والأخذ منها فازداد عدد النساء اللواتي كانت لهن مشاركة في هذه العلوم. ففي مجال الفقه كانت له مكانة عالية لدى الأندلسيين أمدتنا كتب التراجم بعدد من أسماء النساء الفقيهات واللاتي أسهمن في ازدهار الفقه¹⁵. ومن النساء الفقيهات في عهد الخلافة راضية مولاة عبد الرحمن بن محمد الناصر مهتمة بالعلوم الدينية خاصة الفقه حجت سنة 363هـ مع زوجها آخذت عن علماء المشرق توفيت سنة 423هـ/1031م، وكذلك فاطمة بنت يحيى بن يوسف المقامي أخت الفقيه يوسف بن يحيى المقامي كانت خيرة فاضلة عالمة فقيهة استوطنت قرطبة وبها توفيت سنة 319هـ/931م¹⁶.

ومنهن أيضا السيدة بنت عبد الغني العبدرية المعروفة بأمر علاء التي اشتهرت بتلاوتها للقرآن الكريم وحفظها للأدعية الأذكار، اعتنى والدها بتربيتها وتعليمها فكانت آية في حفظ القرآن مليحة الخط نسخت بخطها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لجأت لتونس مع أبيها وانقطعت لتعليم البنات¹⁷.

أما في علوم الحديث: فقد شاركت المرأة أيضا في نشاط الدراسات المتعلقة بالحديث وعلومه فقد أخذت تروي الأحاديث وتسمع من الشيوخ ومن نساء الأندلس اللاتي كانت لهن مشاركة في علوم الحديث خديجة بنت جعفر بن نصير بن التمار التميمي زوج عبد الله بن أسد الفقيه عالمة بعلوم الحديث أدبية حدثت عن زوجها عبد الله بن أسد¹⁸. ولم تقتصر المرأة الأندلسية على التعلم في بلادها بل رحلت هي الأخرى إلى المشرق من أجل طلب العلم والإجازات، فقد رحلت خديجة بنت أبي محمد بن عبد الله السنتحيالي إلى المشرق مع أبيها وحضرت معه في مكة نفس الدروس التي حضرها وسجلت في الإجازات التي شهد بها الأساتذة لعلمها، كما رحلت أيضا فاطمة بنت سعد الخير بن محمد مع والدها وحضرت دروس كبار علمائه¹⁹. وهكذا فإن المرأة الأندلسية قد تركت بصماتها في كل المجالات دينية كانت أو اجتماعية، فحتى مجال التصوف فإن بعض النصوص التاريخية تشير إلى رثاء الشعراء لبعض النساء المرابطات وكرامتهم فقد ذكرت زينب بنت عباد بن سرحان التي كانت فاضلة كثيرة الأوراد صوامة قوامه بل بعضهن اخترن حياة الاعتكاف والزهد والانقطاع إلى العبادة في ريعان الشباب²⁰. ولم يقتصر هذا التوجه على العهد المرابطي بل كانت

المرأة العاملة الفقيهة الزاهدة في كل العصور التي مرت في الأندلس.

3- المرأة والطب : اهتم أهل الأندلس اهتماما بالغاً بالعلوم الطبية التي كانت عندهم في مقدمة العلوم التطبيقية، خاصة مع بداية عصر ملوك الطوائف والعصور التي تلتها حيث ازدادت العناية بدراسة الطب ولم يقتصر على الرجال فقط بل نبغ عدد من النساء في هذا المجال وكان بعضهن يتخصصن أحيانا في إمراض النساء والتوليد وكثيرا ما كانت المرأة الطبية تدعى في حالات الولادات الصعبة وتأخذ أجرا على ذلك²¹، وقد اشتهرت في مجال الطب بالأندلس أسرة بن زهر في اشبيلية وتربعوا على عرش الطب من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن السابع الهجري والنساء الطبييات التي اشتهرت في هذه الأسرة أم عمر وبنت أبي مروان بن زهر شقيقة الطبيب الحفيد أبو بكر بن زهر، وتميزت بمهاراتها في الطب والعلاج²². ولم تكن أم عمر والوحيدة في هذا المجال بل شاركتها ابنتها كما ظهرت في مجال الطب أم الحسن بنت القاضي ابن جعفر الطنجالي الطبيب المشهور في حقل الطب والأدب²³، وهذا فقد شاركت المرأة في علوم كثيرة كانت تظهر في البداية بأنها من اختصاص الرجل.

4- المرأة والتعليم : لقد كانت المساجد بمثابة مدارس تعقد فيها حلقات الدروس وكان الإقبال على هذه الحلقات يشمل بعض النساء في قرطبة وفي سواها فيقصدنها منقبات ومحتشمات وكان ذلك في عهد الخلافة وقد أدى إلى ظهور عدد من النساء المتأدبات والعارفات بأصول الدين وكان عددن يزددن تبعا لازدياد اهتمام الخلفاء بالعلوم والأدب²⁴، وبفضل جامعة قرطبة في فترة الخلافة

نبغت الكثيرات من النساء في شتى العلوم، ومن العادات التي كانت منتشرة في الأندلس أن بعض البيوت كانت تستأجر النساء وتشترى الجواري، ليعملن كمربيات للأطفال ومعلمات لتثقيف الصغار، وذكر ابن حزم عدة نساء اشرفن على تربيته وتعليمه الكتابة وتحفيظه القرآن²⁵، وهذا دليل على أن المرأة الأندلسية نالت حظا وافرا من التعليم ومكنتها المدارس الإسلامية من فرصة التعلم وجعلتها تحتل مكانة مرموقة وهذا ما جعلها تكسب ثقة الحكام وتوظف في البلاطات لتعليم أبناء الأمراء والوزراء، فقد كان من عادة ملوك الأندلس أن يعهدوا لبناتهم ونسائهم لمعلمات بتعهدهن بالتعليم والتهديب وقراءة الشعر وحفظه²⁶، ومن أشهر المعلمات في الأندلس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الإشبيلي التي اهتمت بتعليم النساء، كما كانت السويداء المعروفة بالعروضية الفاضلة تعقد جلسات علمية تلقن ما حفظته من العروض والنحو²⁷ ونذكر هنا أيضا ولادة بنت المستكفي التي سبق الحديث عنها في مجال الشعر بحيث كانت تناظر الشعراء وتساجل الأدباء وتشارك في المجالس العلمية وتأسس الأندية الثقافية.

ومن المعلمات حفصة الركونية تفوقت في الأدب وكتابة الخط كانت تعلم النساء في دار المنصور أمير المؤمنين²⁸، ومنهن أيضا حمدة أو حمدونة الركونية بنت زياد المؤدب شاعرة وكاتبة عملت على تعليم النساء فذاع صيتها وعظمت مكانتها، فلقبوها بـ«نساء المغرب»²⁹.

كما تعدى دور النساء إلى الاهتمام بجمع الكتب وإنشاء المكتبات ومن أشهرهن عائشة بنت أحمد قادم القرطبية التي كانت من ابرز نساء عصرها علما وأدبا

وشعرا وكانت خزانة كتبها من اغني المكتبات،³⁰ إن اهتمام المرأة الأندلسية لم يقتصر على التعليم فحسب بل تجاوزته إلى الإنفاق على إنشاء العديد من المراكز والمؤسسات التعليمية،³¹ وهذا ما يدل على تنوع نشاط المرأة في الأندلس وولوجها معظم الميادين العلمية والثقافية.

5- **المرأة والفن** : لقد اشتهرت الأندلس في جميع مراحلها التاريخية بانتشار مجالس اللهو والطرب والشراب وأصبحت من المشاهد المألوفة، وكانت هذه الحفلات من إحياء المغنيات وأكثرهن من الجواري، وقد احتكر هذا النوع من المجالس الطبقة الأرستقراطية فكان أمراء الأندلس يعقدون هذه المجالس في البساتين الواسعة أو في القصور ودور الأثرياء،³² لقد ساهم زرياب القادم من المشرق في تطور الغناء، فقد أسس مدرسة للموسيقى في قرطبة وزاد في أوتار العود وترا خامسا اختراعا منه،³³ وقد أخذ عن زرياب الكثير من الرجال والنساء وبما إننا نتحدث عن دور المرأة فسنقتصر على ذكر بعض المغنيات في مراحل مختلفة ومن أبرزهن المغنية فضل التي كانت جارية لإحدى بنات هارون الرشيد، واشترت للأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن أيضا المغنية الجارية قلم أرسلت إلى المشرق فتعلمت الأدب والغناء كما كان للمنصور بن أبي عامر جارية مغنية وشاعرة تسمى انس القلوب،³⁴ ويعتبر عصر الطوائف من ازدهار العصور في مجال الموسيقى والغناء نظرا للبدخ والترف والثراء الذي شهدته البلاطات المختلفة فكثرت المغنيين والمغنيات في القصور حتى أصبح التنافس بين الأمراء فارتفعت أثمانهم ونذرت أصنافهم وفي هذه الفترة اشتهرت اشبيلية بالخلاعة واللهو وحب الموسيقى حتى

قليل فيها انه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة وإن مات مطرب بقرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية، إن تنوع البيئة في الأندلس كان له الأثر البارز في تنوع الفنون وازدهارها وإقبال أهل الأندلس على مختلف طبقاتهم على الفن والغناء هذا التطور تأثر به المجتمع الغربي اللاتيني حيث بدأت بعض النظريات الموسيقية العربية تظهر في الموسيقى اللاتينية³⁶، إذن فالغناء والموسيقى كان عاملا مساعدا لرفع مستوى الحياة الاجتماعية في كل المدن الأندلسية فكانت مجالس وقصور الملوك مدارس تعزف فيها كل الألحان ويتكون فيها المغنون وهي النافذة التي يتنفس منها الملوك والعامّة حتى ينسوا ولو لحظة واقعهم السياسي الممزق.

إن المرأة في المجتمع الأندلسي صنفين حرائر وجواري إلا أنّها في كلتا الطبقتين قد اخترقت الأفاق وأثبتت وجودها وأدت أدوارها بحسب وضعها الاجتماعي في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

الهوامش

- ¹ ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، تحقيق دوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة لبنان، ص 20.
- ² جودة هلال ومحمد محمود صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986، ص 26.
- ³ المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ ومحمد البقاعي، دار الفكر بيروت، 1986، ج 4، ص 138.
- ⁴ محمد حسن فحة، محطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي دار السعودية للنشر والتوزيع، جدة 1985، ط 1، ص 90.
- ⁵ المقرئ، نفح الطيب تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1962، ج 4، ص 167.
- ⁶ محمد أحمد أبو الفضل، تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1996، ص 198.
- ⁷ المقرئ، المصدر السابق، ج 4، ص 205.
- ⁸ إدريس بودية، مائة شاعرة وشاعرة، دار الثقافة العربية الإسلامية الجزائر 2007، ص 42. المقرئ المصدر السابق، ج 4، ص 170.
- ⁹ المقرئ، المصدر السابق، ج 4، ص 211.
- ¹⁰ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، 1955، ص 221.
- ¹¹ المقرئ، المصدر السابق ص 295. محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، دار الوعي الجزائر، ط 1، 2009، ص 186.
- ¹² مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1975، ط 3، ص 115.
- ¹³ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 202.
- ¹⁴ ابن بشكوال أبو القاسم، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، المكتبة الأندلسية بيروت 2009، ص 513.

- 15 بعيون سهى، إسهام العلماء المسلمين في العلوم بالأندلس عصر ملوك الطوائف، دار المعرفة بيروت ط1، 2008، ص456.
- 16 ابن بشكوال، المصدر السابق، ص532.
- 17 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1973، ج1، ص483.
- 18 ابن بشكوال، المصدر السابق، ص532. شبيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، دار الفكر العربي القاهرة ج3، ص371.
- 19 جوليان روبرا، التربية الإسلامية في الأندلس، تر، طاهر أحمد مكي، دار المعارف 1994، ص131.
- 20 محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص103.
- 21 بعيون سهى، المرجع السابق ص491.
- 22 دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني، ط1، بيروت 1988، ص415.
- 23 المقرئ، المصدر السابق، ص318.
- 24 بعيون سهى، المرجع السابق، ص456.
- 25 ابن حزم أبو محمد، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق محمد يوسف الشيخ، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 2004، ص166.
- 26 مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص147.
- 27 المقرئ، المصدر السابق، ص171.
- 28 المقرئ، المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- 29 ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص315.
- 30 محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجبل، بيروت 1997، ص136.
- 31 ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة، تح، محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، 1984، ج8، ص487.
- 32 ابن حزم، المصدر السابق، ص40.

